ثقافة الشـــاعر
وأثرها فى شعره
للأســـتاذ دريني خشبة

ظن بعض إخواننا الشعراء أننا قصدناهم بمقالنا الذى رجونا شعراء الشباب فيه أن يعنوا بثقافتهم الخاصة حتى يستطيعوا أن يحسنوا الاضطلاع بالنهضة التى نطمع أن تتم للشعر العربى الحديث على أيديهم . . . وإخواننا هؤلاء مخطئون ، لأنهم الآن فى الذروة من ثقافتهم التى أوشكت أن تمهد لهم الزعامة فى الشعر المصرى الحديث ، وإن كانوا فى نظرنا مع ذلك لم يؤدوا لهـذا الشعر جزءا واحداً من مائة جزء مما نصبو إليه ، حتى يكون لنا شعر لا نخجل من المباهاة به وسط أنواع الشعر العالمى

وسخط بعض إخواننا من شعراء الشباب الآخرين ، وعدوا الروح التى أملت علينا مقالنا نكوصاً عما أخذنا به أنفسنا من الدفاع عن شعراء الشباب ، ونسوا أننا لم نك يوماً مكابرين حتى نغمض أعيننا عما فى كثير من شعرهم من الطراوة والفجاجة والضعف . . . الشعر الذى لا يمكن أن يحدث نهضة طالما أن أصحابه معجبون به ... يظنون أنه بلغ الدرجة القصوى من الأناقة والتجويد ، وأوفى على الغاية من الذوق والحرارة والشاعرية

ورضى فريق ثالث متواضع فاقتنى الكثير من الكتب التى أشرنا إليها وأخذ يستوعب ما فيها ، ويصلح به شأنه ، وكان فى اعترافهم بما لمسناه فى بعضهم من قلة الاطلاع على أشعار العرب فى مختلف العصور لون من عظمة النفس التى تفتقر إليها نهضتنا الأدبية التى نرجو أن تبلغ أوجها على أيديهم إن شاء الله

غير أن فريقاً رابعاً من أنبه شعرائنا ـ الشباب والشيوخ ـ الذين جمعتنا بهم صدفة من أسعد الصدف ، لم يوافقنا على ما ندعو إليه من وجوب أن يكون الشاعر مثقفاً تلك الثقافة العميقة التى لا تنبغى ـ فيما ذهبوا إليه ـ إلا للعلماء والفلاسفة والكتاب ... وذلك ، أن تلك الثقافة العميقة ، فيما ذهبوا إليه أيضاً ، قد تجنى على شاعرية الشاعر فتجعله جاف الأسلوب ، نائى العبارة ، ملتوى التفكير ، معقّد الأداء . . . وضربوا لذلك مثلاً . . . أبا الطيب المتنبى ، وأبا العلاء المعرى ... فلم يفتنى أن أعارضهم بأبى تمام ، والبحترى ، وابن الرومى ...!

وهكذا ننتقل فجأة إلى قضية أدبية طريفة . . . ليست أقل قيمة من تلك القضية الشائكة . . . قضية وحدة الوجود ... والعياذ بالله !

إن إخواننا هؤلاء يزعمون أنه لا ضرورة مطلقاً لأن يتعمق الشاعر فى ثقافته ، لأن ذلك يؤثر من غير شك فى شاعريته ، ويجعله يُضَمّن شعره خطرات علمية (باردة !) إذا كانت ثقافته العميقة تلك ثقافة علمية ، أو خطرات فلسفية (حائرة !) إذا كان ممن يدمنون النظر فى آراء الفلاسفة وتخبطاتهم ... فإن كانت ثقافته لفظية ، من نوع ثقافة العجاج ورؤبة وعقبة وأبى العلاء ، ترك هـذا فى شعره ذلك المرض الأسلوبى المثقل بحوشى الألفاظ وغريب التعابير ، مما يصرف القراء عنه ؛ ويزهد عشاق الشعر فيه ... وذكروا حالات غير هذه ، وراحوا يضربون لكل حالة منها أمثالاً تجعل رأيهم وجيهاً ، وتكسبه قوة خداعة ذات بريق

فهل ما ذهبوا إليه من ذلك كله حق ؟ وهل تطبيقاتهم صحيحة ؟ لقـد ذكروا المتنبى والمعرى فيمن ذكروا من الشعراء الذين أتلفت ثقافاتهم شاعريتهم . فهل من الحق أن المتنبى والمعرى قد أتلفا شعرهما بما كانا يتعمدانه من تضمينه ألوان الثقافات التى كانا يمتازان بها

لقد نشأ المتنبى فى بيئة شيعية ، وتعلم فى إحدى مدارس الشيعيين بالكوفة ، وكان لهذا السبب من أوسع الناس إلماماً بتاريخ الفرق الإسلامية وأحوالها ومعتقداتها . وذهب بعض مؤرخى الأدب العربى ، ومنهم الأستاذ ماسينيون والدكتور طه حسين ، إلى أن المتنبى لم يكن شيعياً فحسب ، بل كان قرمطياً ، وقرمطياً متطرفاً . وأن قرمطيته بدت فى ألفاظه وتعبيراته وأفكاره . ويحدثنا الدكتور طه عن ذلك حديثا طليا فى كتابه « مع المتنبى » . وكما بدا التشيع فى شعره ، بدا التصوف كذلك ، فهو يستعمل طرق الأداء عند المتصوفة ، ويأتى فى شعره وأخيلته بكثير من أوهامهم ومعتقداتهم ، ويمدح

أتمتهم مدحاً قد لا يسيغه المسلم الحق إلا موجهاً إلى الله سبحانه . ولم يبال المتنبي أن مدح الأوراجي[1] الصوفي الذي كان له في مأساة الحلاج النصيب الأوفى ، وأن يمدحه بإحدى روائعه التي مطلعها :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء
إذ حيث كنت من الظلام ضياء

ولا يبالي أن يبوح في كثير من قصائده بما لعله كان يؤمن به من الحلول والتناسخ ... ولست أدري ماذا يقدح ذلك في المتنبي العظيم كشاعر من شعراء الصف الأول بين شعراء العرب ؟ ماذا يعيب الشاعر أن يمتلئ ذهنه بلون ما من ألوان الثقافة فيكون له صدى في شعره يصدر عنه عفواً وعن غير عمد ؟

قد يكون إخواننا الأعزاء على حق حين يلاحظون على المتنبي تعمده الإتيان في شعره بالغريب الحوشي من الألفاظ ، والغريب الشاذ من الجموع والصفات ... ولكن ما حيلة المتنبي في عصره الذي كان يزخر بعلماء اللغة وفقهائها وشيوخ النحو والصرف والبلاغة ؟ لقد كان أكثر هؤلاء العلماء الأعلام يناصبون المتنبي العداء ، وينفسون عليه مرتبته الأدبية التي لم يتمتع بها شاعر من قبل ، فكانوا يتعقبون شعره ، ويقفون له بالمرصاد ، عسى أن يسقطوا له على غلطة ، أو أن يعدوا عليه زلة ، وكان المتنبي يعرف ذلك منهم ، فكان يعبث بهم ، ويغلو في هذا العبث ، وينصب لهم من عربيته الفصحى فخاخاً تمسك بهم كما تمسك الشراك الثعالب

على أن أحداً من هؤلاء العلماء الأعلام لم يكن أرسخ في علوم العربية كعباً من أبي الطيب . ففي (معاهد التنصيص) — ج١ ص١١ — « أن الشيخ أبا علي الفارسي قال (للمتنبي) يوماً : كم لنا من الجموع على وزن فعْلى ؟ فقال المتنبي في الحال : حجلى وظربى ، قال الشيخ أبو علي ، فطالعت في كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد ! » . وفي خزانة الأدب للبغدادي (ج ١ ص ٣٨٠) أن ابن العميد قرأ على المتنبي كتاباً من كتب اللغة

ولعل الذي كان يعيبه هؤلاء العلماء الأعلام على المتنبي لم يكن جميعه ، أو لم يكن شيء منه ، مما يعاب على سيد شعراء العربية غير مدافع .. فقد كان المتنبي كوفياً ، وكان لذلك يخرج في النحو على سنن البصريين وفي الأنصاف (طبع أوربا) تفصيل لكثير مما كان موضع خلاف بين المدرستين بصدد أشعار المتنبي ، وقد أجاد الأنباري مؤلف ذلك الكتاب القيم في توضيح ذلك إجادة تامة نافعة تبرئ المتنبي مما أخذه عليه خصومه وما لا يزال خصومه في عصرنا الحديث يأخذونه عليه من مثل ذلك ، مما يتوهمونه خطأ

وكما كان للمتنبي خصوم من النحويين وفقهاء اللغة ، كذلك كان له خصوم كثيرون من المتكلمين ، فكان يداعبهم تارة ، ويداعب فقهاء المسلمين تارة أخرى . وقد عنى الدكتور طه بهذه المداعبات في كتابه « مع المتنبي » عناية كبيرة .. وكانت مداعباته تلك تثير بين أولئك وهؤلاء حرباً فكرية طريفة في الزمن الذي كانت تجري فيه ... فكيف نعدها اليوم من المآخذ التي نحصيها على المتنبي ، ونعيب بها شعره ؟

وكان المتنبي — لتشيعه — أو لفرمطيته — ولتقلبه في بلاد المسلمين من دون العراق الذي كانت غالبية أهله تفتتن بأساليب المتنبي وتشغف بها ، لكثرة ما كان ينتشر فيها من الفرق وأصحاب الفلسفات الغالية ، يؤثر استعمال الرمز ، ولا سيما إذا كان ينشد في مجالس من السنيين ، وهو في ذلك تلميذ للمتصوفة ، إلا أنه غدا أستاذهم . وبالأحرى أستاذ شعرائهم . وليس للصوفية رمز ، أو شارة ، لم يستخدمهما المتنبي ، إلا ما ندر . والذي يدمن قراءة أشعار ابن الفارض يشعر من فوره بتأثر شيخ شعراء المتصوفة بأستاذه المتنبي ، ولا سيما في استعمال المذهب الرمزي ، وفي كثرة استخدام التصغير ...

ولست أدري ماذا يعاب من ذلك كله على المتنبي ، بوصفه شاعراً كان يعيش في ظروف خاصة ، وكان يخضع لمقومات بيئة خاصة

على أن الذي تورط فيه إخواننا مما ذهبوا إلى أنه من عيوب ثقافة المتنبي العميقة التي أتلفت شعره ، وخرجت به من جنة الشعر إلى جحيم الفلسفة ، تلك الحكمة التي نثرها في قصائده ، وكان فيها تلميذاً غير موفق لأرسطو !

وذكروا أن الصاحب بن عباد ألف لفخر الدولة رسالة أحصى فيها للمتنبي ثلثمائة وسبعين بيتاً تجري مجرى الأمثال ؛

(١) هو أبو علي هرون بن عبد العزيز الأوراجي المتصوف .